بدأ وإليه يعود ، وإنما قالوا منه بدأ لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون أنه خلق الكلام فى محل فقدر الكلام فى ذلك المحل ، فقال السلف : منه بدأ أى هو المتكلم به ، فمنه بدأ أى من بعض المخلوقات، كما قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[فصلت: ٢] ومعنى قولهم : وإليه يعود أنه يرفع من الصدور والمصاحف كما ورد فى الأحاديث ، انتهى.

والأظهر عندى أن معنى إليه يعود: يرجع إليه علم تفصيل كيفية كلامه، وكنه حقيقة مرامه ، فإن سمع موسى كلامه لا يتصور أن يقال سمعه كله أو بعضه .

صفات الله تعالى لا تشابه صفات المخلوقين :

وصفاته فى نسخة : لم يزل صفاته **كلها** أى ونعوت البارى جميعها واقعة **بخلاف صفات المخلوقين** أى لا تشابه نعوتهم وإن وقع الاشتراك الاسمى فى صفات الحق ونعت الخلق ، من العلم والقدرة والرؤية والكلام والسمع ونحوه ، كما بينه بقوله : **يعلم** أى : « الله تعالى » كما فى نسخة : **لا كعلمنا** أى : معشر الخلق ، فإنا نعلم الأشياء بآلات ، وتصوّر صور حاصلات فى أذهاننا ، بقدر أفهامنا وإعلامنا ، والله تعالى يعلم حقائق الأشياء كلِّيها وجزئيها ، ظاهرها ومخفيها بعلم ذاتى صمدى أزلى أبدى **ويقدر** أى : سبحانه **لا كقدرتنا** لأن قدرته تعالى قديمة لا بآلة ولا بمشاركة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة: ١٢٠] ونحن لا نقدر إلا على بعض الأشياء بالإقدار ، وذلك المقدار أيضًا بالآلات والأعوان والأنصار ، وأما هو سبحانه ففاعل مختار ، وقادر حكيم مدبر بقدرة واختيار .

ويرى أى هو لقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾[العلق: ١٤] **لا كرؤيتنا ويسمع لا كسمعنا** فإنا نرى الأشكال والألوان المختلفة ، ونسمع الأصوات والكلمات المؤتلفة ، بالآلات المخلوقة فى الأعضاء المركبة على وفق إبصاره لا بأبصارنا وإسماعه لا سماعنا ، كما ورد فى الدعاء : « **اللهم متعنا بأسماعنا**

وأبصارنا ما أحييتنا »(١) والله سبحانه يرى الأشكال والألوان والهيئات المختلفات بإبصاره الذى هو صفته على نعت اقتداره ، ويسمع الأصوات والكلمات المفردات والمركبات بسمعه الذى هو نعته لا بآلة من الآلات ، ولا بمشاركة غيره من الكائنات ، وإن رؤيته للمرئيات وسمعه للمسموعات قديمة بالذات ، وإن كان المرئى والمسموع من الحادثات ، على ما سبق بيانه فى سائر الصفات ، من أن تأخر المتعلق الحادث لا ينافى تقدم المتعلق القديم ، ألا ترى أنك ترى فى حالة نومك ، بقوى بطون دماغك ، فى حالة رؤياك أشكالاً وألوانًا ، وتسمع أصواتًا وأفنانًا ، ولا شكل ولا لون بحاصل ولا حاضر ، وبعد زمان غابر ، ترى تلك الألوان والأشكال ، وتسمع تلك الأصوات والأقوال ، فى حال يقظتك على منوال ما رأيتها وسمعتها فى تلك الحالة بلا زيادة ولا نقصان فى المآل ، ومع هذا تتعجب من الله الملك المتعال ، الموصوف بنعوت الكمال ، أنه كيف يرى الألوان والأشكال قبل وجودها ، وكيف يسمع الأصوات والكلمات قبل وقوعها ، وهو الذى يريك الأشكال والألوان فى حالة نومك بدون حضورها ، ويسمك الأصوات والكلمات قبل صدورها .

ويتكلم لا ككلامنا كما بينه **ونحن نتكلم بالآلات** أى من الحلق واللسان والشفة والأسنان **والحروف** أى الأصوات المعتمدة على المخارج المعهودات ، بالهيئات المعروفات **والله تعالى يتكلم بلا آلة ولا حروف** أى لكمال الذات والصفات **والحروف مخلوقة** أى كالآلات **وكلام الله تعالى غير مخلوق** بل قديم بالذات .

قال الطحاوى : فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله

(١) صحيح : أخرجه البخارى (٦٥٠) فى الأدب المفرد وابن السنى (٥٥٩ ، ٧٣٠) فى عمل اليوم وعبد الرزاق (١٩٦٦٠) فى المصنف والحاكم (١/ ٥٢٣، ٢/ ١٤٢) فى المستدرك والطبرانى فى الصغير (٢/ ١٠٨) وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٨٢) .

وأوعده بسقر حيث قال الله : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر:٢٥]فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٦]علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر، انتهى .

وقال شارحه :قد افترق الناس فى مسألة الكلام على تسعة أقوال :

أحدها : أن كلام الله تعالى هو ما يفيض على النفوس من المعانى إما من العقل الفعال عند بعضهم ، أو من غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيها :أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه ، وهذا قول المعتزلة .

وثالثها:أنه معنى واحد قائم بذات الله،وهو الأمر والنهى والخبر والاستخبار، إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنًا ، وإن عُبِّر عنه بالعبرية كان توراة، وهذا قول ابن الكُلاَّب ومن وافقه كالأشعرى وغيره .

ورابعها :أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة فى الأزل ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث .

وخامسها :أنه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا ، وهذا قول الكرَّامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته ، وهذا يقوله صاحب « المعتبر » ويميل إليه الرازى فى « المطالب العالية » .

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلقه فى غيره ، وهذا قول أبى منصور الماتريدى .

وثامنها : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه فى غيره من الأصوات ، وهذا قول أبى المعالى ومن تبعه ، قلت : والأظهر أن المعنى الأول حقيقة والثانى مجاز .

obeikandi.com

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم به بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم وإنْ لم يكن الصوت المعيّن قديمًا ، قلت : وهذا ما يؤيده ما قدمناه وهو المأثور عن أئمة الحديث والسنة ، ولعل تكرار هذه المسألة فى تأليف الإمام لكمال الاهتمام فى مقام المرام .

ثم اعلم أن عبَّاد العجل مع كفرهم بالله أعرف من المعتزلة لأنه لما قال لهم موسى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف:١٤٨] لم يجيبوا بأن ربك لا يتكلم أيضًا ، فعلم أن نفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل ، وغاية شبهتهم أنهم يقولون : يلزم منه التشبيه والتجسيم ، فيقال لهم : إذا قلنا : إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم ، ولقد قال بعضهم لأبى عمرو بن العلاء أحد السبعة من القراء : أريد أن تقرأ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ [النساء:١٦٤] بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله سبحانه ، فقال له أبو عمرو : هب أنى قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:١٣٤] فبهت المعتزلى.

ثم أفضل نعيم الجنة رؤية وجهه وسماع كلامه ، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة الذى ما طابت لأهلها إلا به ، كما أن أشد العذاب للكفار عدم تكليمه لهم ووقوع الحجاب كما أخبر عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة ١٧٤] أى تكليم تكريم ، وقال فى آية أخرى لهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وبقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] وأما استدلالهم بقوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] والقرآن شيء فيكون داخلاً فى عموم كل شيء فيكون مخلوقًا ، فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله تعالى ، فأخرجوها من عموم كلّ وأدخلوا كلام الله

فى عمومه مع أنه صفة من صفات الله به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمره تكون المخلوقات ، قال الله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ففرق بين الخلق والأمر ، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرهما، فذلك صريح كفر فإن علمه شيء، وقدرته شيء ، وحياته شيء ، فيدخل ذلك فى عموم كل، فيكون مخلوقًا بعد أن لم يكن ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا ، وكيف يصح أن يكون متكلمًا بكلام يقوم بغيره ؟ ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام فى الجمادات والحيوانات كلامه ، ولا يفرق بين نطق وأنطق وإنما قالت الجلود : ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ ﴾ [فصلت: ٢١] ولم تقل نطق الله ، بل يلزم أن يكون متكلمًا بكل كلام خلقه فى غيره زورًا كان أو كذبًا أو كفرًا أو هذيانًا تعالى الله عن ذلك ، قال القونوى : وقد طرد ذلك الاتحادية ، فقال ابن عربى (١) :

وكلُّ كلامٍ فى الوجودِ كلامُه سواءٌ علينا نثرُه ونظامُه

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكى بشر المريسى بين يدى المأمون بعد أن تكلم معه ملتزمًا أن لا يخرج عن نص التنزيل ، وألزمه الحجة ، فقال بشر : يا أمير المؤمنين ليدع مطالبتى بنص التنزيل ويناظرنى بغيره ، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة وإلاّ فدمى حلال ، قال عبد العزيز : تسألنى أو أسألك ؟ فقال بشر : أنت ، وطمع فىّ ، قال : فقلت له : يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها ، إما أن تقول : إن الله خلق القرآن فى نفسه ، أو خلقه قائمًا بذاته، ونفسه أو خلقه فى غيره ، قال : أقول : خلقه كما خلق الأشياء كلها ، وحاد عن الجواب ، فقال المأمون : اشرح أنت هذه المسألة ودع بشرًا فقد انقطع ،

(١) المتوفى عام ٦٣٨ هـ .

فقال عبد العزيز : إن قال : خلق كلامه فى نفسه فهذا محال ،لأن الله لا يكون محلاً للحوادث ولا يكون منه شىء مخلوقًا ، وإن قال : خلقه فى غيره فيلزمه فى النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله فى غيره فهو كلامه ، وإن قال : خلقه بنفسه وذاته فهذا محال ، لأن الكلام لا يكون إلا من متكلم ، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ، ولا العلم إلا من عالم ، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته ، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقًا علم أنه صفة لله ، هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز فى « الحيدة » .

قال القونوى : وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ [القصص: ٣٠] على أن الكلام خلقه الله فى الشجرة ، فسمعه موسى منها ، وعموا عما قبل هذه الكلمة فإنه تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ ﴾ [القصص: ٣٠] والنداء : هو الكلام من بعد ، فسمع موسى النداء من حافة الوادى ، ثم قال : ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أى النداء كان من البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما تقول سمعت كلام زيد من البيت يكون البيت لابتداء الغاية لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقًا فى الشجرة لكانت الشجرة هى القائلة ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّه ﴾ [القصص: ٣٠] ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فوعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] صدقًا إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق ، وقد قاله غير الله ، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد أن ذلك كلام خلقه الله فى الشجرة ، وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقًا غير الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ .

فإن قيل : قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهذا يدل على أن الرسول

أحدثه ، إما جبريل أو محمد ، قيل : ذكر الرسول معرفًا لأنه مبلغ عن مرسله لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبى ، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به ، لا أنه أنشأه من جهة نفسه ، وأيضًا فالرسول فى إحدى الآيتين جبريل وفى الأخرى محمد ، فإضافته إلى كل منهما تُبيّن أن الإضافة للتبليغ ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر ، وأيضًا فإن الله تعالى قد كفَّر من جعله قول البشر ، فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول : إنه قول بشرٍ ، أو جنى ، أو ملك إذ الكلام كلام من قاله مبتدئًا لا من قاله مُبلغًا ، أما ترى أن من سمع قائلاً يقول : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، قال : هذا شعر امرئ القيس وإن سمعه يقول : «**إنما الأعمال بالنيات**» [(١)] قال : هذا كلام الرسول وإن سمعه يقول : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة: ١] و﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ قال : هذا كلام الله ، وبالجملة فأهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن القرآن غير مخلوق ، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون فى أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات ، أو أنه حروف وأصوات ، تكلم الله بعد أن لم يكن متكلمًا، أو أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن نوع الكلام قديم ، وهو مختار الإمام الطحاوى، والنزاع بين أهل القبلة إنما هو فى كونه مخلوقًا خلقه الله أو هو كلامه الذى تكلم به وقام بذاته .

---

(١) صحيح : أخرجه البخارى (١/ ٢ ، ٨/ ١٧٥ ، ٩/ ٢٩) ومسلم فى الإمارة (١٥٥) وأبو داود (٢٢٠١) والترمذى (١٦٤٧) والنسائى فى الطهارة باب (٥٩) والأيمان والنذور باب (١٩) وابن ماجه (٤٢٢٧) وأحمد فى المسند (١/ ٢٥) والدارقطنى فى سننه (١/ ٥١) وابن خزيمة فى صحيحه (١٤٢ ، ٤٥٥) والبيهقى فى الكبرى (٢/ ١٤، ٤/ ١١٢، ٥/ ٣٩ ، ٦/ ٣٣١) والخطيب فى تاريخه (٤/ ٢٤٤ ، ٢/ ١٥٣ ، ٩/ ٣٢٦) والطحاوى فى شرح المعانى (٣/ ٩٦) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٣٤٢) .

الله شيء لا كالأشياء :

وهو شيء لا كالأشياء هذا فذلكة الكلام ومجملة المرام ، فإنه سبحانه شيء أى موجود بذاته وصفاته ، **إلا** أنه ليس كالأشياء المخلوقة ذاتًا وصفة ، كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١]سواء يقال الكاف زائدة للتأكيد والمبالغة ، كقول العرب : مثلك لا يبخل ، وهم يريدون نفيه عن نفسه ، فإنهم إذا نفوه عنه بأبلغ وجه منه ، فالكناية أبلغ فى باب الرعاية ، والتلويح أولى من التصريح ، أو يقال : الكاف ثابتة والمراد بمثله ذاته ، أو صفاته ، والحاصل كما قاله العارف الكامل: ما خطر ببالك فالله سوى ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]والعجز عن درك الإدراك إدراك ، وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : « **لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك** » [(١)] ويعلم من قوله شيء : لا كالأشياء أنه سبحانه ليس فى مكان من الأمكنة ، ولا فى زمان من الأزمنة ، لأن المكان والزمان من جملة المخلوقات ، وهو سبحانه كان موجودًا فى الأزل ولم يكن معه شيء من الموجودات .

ثم اعلم أن الشيء فى أصله مصدر قد يستعمل بمعنى المفعول كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٨٤]وبهذا المعنى لا يجوز إطلاقه على الله تعالى ، وبمعنى الفاعل كقوله سبحانه : ﴿ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٩]وحينئذ يجوز إطلاقه عليه تعالى ، وقد يراد مطلق الموجود إلا أنه فرق بين المعبود الموصوف بأنه واجب الوجود ، وبين الممكن الوجود الذى يستوى وجوده وعدمه فى مقام المقصود ، فبهذا الاعتبار إطلاق لفظ الشيء عليه سبحانه أحق من إطلاقه على غيره **ومعنى الشيء** أى معنى كونه شيئًا **لا كالأشياء إثباته** أى إثبات وجود ذاته **بلا جسم ولا جوهر ولا عرض** أى فى

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ٥٨) .

اعتبار صفاته ، لأن الجسم متركب ومتحيز وذلك أمارة الحدوث ، والجوهر متحيز وجزء لا يتجزأ من الجسم ، والعرض كل موجود يحدث فى الجواهر والأجسام وهو قائم بغيره لا بذاته كالألوان والأكوان من الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وكالطعوم والروائح ، والله سبحانه منزه عن ذلك .

وحاصله : أن العلم أعيان وأعراض، فالأعيان ما له قيام بذاته وهو إما مركب وهو الجسم ، أو غير مركب كالجوهر ، وهو الذى لا يتجزأ والله سبحانه منزه عن ذلك كله ، وما أحسن قول الرازى رحمه الله : المجسِّم ما عبد الله قط ، لأنه يعبد ما تصوّره فى وهمه من الصورة ، والله تعالى منزه عن ذلك ، وذلك أن أبا حنيفة رحمه الله سئل عن الكلام فى الأعراض والأجسام فقال : لعن الله عمرو ابن عبيد [1] هو فتح على الناس الكلام فى هذا . **ولا حدّ له** أى ليس له حد ونهاية . **ولا ضد له** أى ليس له منازع وممانع أبدًا لا فى البداية ولا فى النهاية. **ولا ند له** أى : لا شبيه له ولا شريك له ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾ [البقرة: ٢٢]أى بالأصنام وغيرها من الأنام . **ولا مثل له** أى لا شبيه له ولا كفؤ ، ولا نوع له حيث لا جنس له .

واقتتلت طائفتان فى باب الصفات فطائفة غلت فى النفى ، وطائفة غلت فى الإثبات ، ونحن صرنا إلى الطريق المتوسط بين الغلو والتقصير ، فأثبتنا صفات الكمال ، ونفينا المماثلة من جميع الأحوال ، بقى أن يتوهم من قوله تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١]أن هذه الصفة لا تكون إلا مخصوصة بحضرته تعالى ، لأن الاختصاص يُنتقض بالعدم ، إذ العدم من حيث هو عدم ليس كمثله شىء فقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ دفع لهذا الوهم والخيال والإشكال ، فإن من المحال أن يكون العدم سميعًا بصيرًا ، ويسمى مثل ذلك فى الكلام

---

(١) هو شيخ المعتزلة فى عصره .

احتراسًا .

ومجمل الكلام ، وزبدة المرام : أن الواجب لا يشبه الممكن ، ولا الممكن يشبه الواجب ، فليس بمحدود ولا معدود ، ولا متصور ، ولا متبعض ، ولا متحيز ولا متركب ، ولا متناه ، ولا يوصف بالمائية والماهية، ولا بالكيفية من اللون والطعم والرائحة ، والحرارة والبرودة واليبوسة ، وغير ذلك مما هو من صفات الأجسام ولا متمكن فى مكان لا علو ولا سفل ولا غيرهما ، ولا يجرى عليه زمان كما يتوهمه المشبهة والمجسمة والحلولية ، وليس حالاً ولا محلاً .

له يد ووجه ونفس بلا كيف :

وله أى لله سبحانه **يد ووجه ونفس** أى كما يليق بذاته وصفاته **فما ذكر الله فى القرآن من ذكر الوجه** أى كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] وقوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ١١] وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠] **واليد** أى كقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يس: ٨٣] **والنفس** أى كقوله تعالى حكاية عن عيسى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] وأما ما قيل : من أن إطلاق النفس عليه سبحانه من باب المشاكلة فمدفوع حيث ورد من غير المقابلة كما فى حديث : « **أنت كما أثنيت على نفسك** »[1] والتحقيق: أن النفس باعتبار مأخذه من النفس بالتحريك لا يصح إطلاقه عليه تعالى وأما باعتبار أخذه من النفيس فيجوز إطلاقه عليه لأنه سبحانه تعالى أنفس الأشياء وأعزها وكذا العين فى قوله تعالى :

---

(١) صحيح : سبق تخريجه .

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] وكذا بصيغة الجمع فى قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] وكذا قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] **فهو** أى جميع ما ذكر **له** أى للحق سبحانه **صفات** أى متشابهات **بلا كيف** أى مجهول الكيفيات وفى نسخة « وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله » .

ولا يقال أى فى مقام التأويل كما عليه بعض الخلف مخالفين للسلف **إن يده قدرته** أى بطريق الكناية **أو نعمته** : أى بناء على أن اليد تطلق على النعمة ، ومنه قول الشاطبى : إليك يدى منك الأيادى تمدها ، وكذا لا يقال : إن وجهه ذاته وعينه وبصره واستواءه على العرش استيلاؤه **لأن فيه** أى فى تأويله **إبطال الصفة** أى فى الجملة، لأنه تعالى حيث أطلق اليد ولم يذكر القدرة والنعمة بدلها فالظاهر أنه أراد بها غير معنييهما **فهو** أى إبطال الصفة من أصلها وبأسرها **قول أهل القدر** أى عمومًا **والاعتزال** أى خصوصًا بناء على توهم لزوم تعدد القدماء ، فإن صفة القديم لا تكون إلا قديمًا وإلا فيلزم أن تكون ذاته محلاً لحوادث هنالك وهو منزه عن ذلك ، وقد علمت أن صفاته سبحانه ليس عين ذاته ولا غيرها فلا يلزم تعدد القدماء ، ثم أكد القضية بقوله : **ولكن يده صفته بلا كيف** أى : بلا معرفة كيفيته كعجزنا عن معرفة كنه بقية صفاته فضلا عن معرفة كنه ذاته **وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف** أى بلا تفصيل أنهما من صفات أفعاله، أو من نعوت ذاته ، والمعنى أن وصف غضب الله ورضاه ليس كوصف من سواه من الخلق ، فهما من الصفات المتشابهات فى حق الحق على ما ذهب إليه الإمام تبعًا لجمهور السلف ، واقتدى به جمع من الخلف ، فلا يؤولان بأن المراد بغضبه ورضاه إرادة

الانتقام ومشيئة الإنعام ، والمراد بهما غايتهما من النقمة والنعمة .

قال فخر الإسلام : إثبات اليد والوجه حق عندنا ، لكنه معلوم بأصله ، متشابه بوصفه ، ولا يجوز إبطال الأصل بالعجز عن درك الوصف بالكيف ، وإنما ضلت المعتزلة من هذا الوجه ، فإنهم ردوا الأصول لجهلهم بالصفات على الوجه المعقول ، فصاروا معطلة ، وكذا ذكره شمس الأئمة السرخسى ثم قال : وأهل السنة والجماعة أثبتوا ما هو الأصل المعلوم بالنص أى بالآيات القطعية والدلالات اليقينية ، وتوقفوا فيما هو المتشابه وهو الكيفية ، ولم يجوزوا الاشتغال بطلب ذلك ، كما وصف الله به الراسخين فى العلم فقال : ﴿ **يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ٧] انتهى . وكذا ما ورد فى الأحاديث المرويات من العبارات المتشابهات، كقوله ﷺ : « **إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وعجنت بالمياه المختلفة ، وسوّاه ونفخ فيه الروح ، فصار حيوانًا حساسًا بعد أن كان جمادًا** » (١) الحديث ، وكقوله عليه الصلاة والسلام على ما رواه مسلم : « **إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء** » (٢) وكقوله عليه الصلاة والسلام : « **لاتزال جهنم تقول : هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة قدمه** » (٣) الحديث ،

(١) هذا الحديث ساقه المصنف بمعناه وأخرجه بنحوه أبو داود (٤٦٩٣) والترمذى (٢٩٥٥) وأحمد فى المسند (٤/ ٤٠٠ ، ٤٠٦) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١) وابن سعد فى الطبقات (١/ ٤٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٠٤ ، ٨/ ١٣٥) بلفظ : « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسَّهل والحزن والخبيث والطيب » واللفظ للترمذى .

(٢) صحيح : سبق تخريجه .

(٣) صحيح : أخرجه البخارى (٨/ ١٦٨) ومسلم فى الجنة باب (١٣) رقم (٣٧، ٣٨) والترمذى (٣٢٧٢) وأحمد فى المسند (٣/ ٢٣٤) والخطيب فى تاريخه (٥/ ١٢٧) =

وكقوله عليه الصلاة والسلام : « **إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** » (١) كما رواه مسلم ، وكقوله عليه الصلاة السلام : « **الحجر الأسود يمين الله فى أرضه يصافح بها عباده** » (٢) روى ابن ماجه نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعًا ولفظه: « **من فاوض الحجر الأسود فإنما يفاوض يد الرحمن** » (٣) وقد سئل أبو حنيفة رحمه الله عما ورد من أنه سبحانه ينزل من السماء فقال : ينزل بلا كيف ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : «**إن الله خلق آدم على صورته** » (٤) وفى رواية :

= وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٢٠٤) .

(١) صحيح : أخرجه مسلم فى التوبة (٣١) وأحمد فى المسند (٤/ ٣٩٥) والبيهقى فى الكبرى (٨/ ١٣٦ ، ١٠/ ١٨٨) .

(٢) حسن : بمجموع الطرق أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه (٦/ ٣٢٨) وابن عدى فى الكامل (١/ ٥٥٧) وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٣١١) وقال : رواه الطبرانى فى معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه وذكر ابن أبى الفوارس فى تاسع مخلصياته عن ابن عباس ضى الله عنهما أيضًا أنه قال : « الحجر يمين الله عز وجل فى الأرض فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله » ، وكذا أخرجه الأزرقى فى تاريخه ، وأخرجه أيضًا عن ابن عباس قال : « الركن يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه » وفى لفظ : « إن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه » ، ورواه القضاعى أيضًا عن ابن عباس رضى الله عنهما موقوفًا عليه لكنه صحيح بلفظ : الركنُ يمين الله يصافح بها خلقه والذى نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئًا إلا أعطاه إياه ، ومثله مما لا مجال للرأى فيه ، وله شواهد فالحديث حسن وإن كان ضعيفًا بحسب أصله كما قال بعضهم ، منها ما رواه الديلمى عن أنس بلفظ : الحجر يمين الله فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله ، ومنها وما رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن جابر بلفظ : الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده .

(٣) السابق بنحوه وأخرج لفظه ابن ماجه (٢٩٥٧) .

(٤) صحيح : أخرجه مسلم فى البر والصلة (١١٥) وفى الجنة (٢٨) وأحمد فى المسند (٢/ ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٣٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٣ ، ٥١٩) والحميدى فى مسنده (١١٢٠ ، ١١٢١) وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

«على صورة الرحمن» وأمثاله ، فيجب أن يجرى على ظاهره ، ويفوض أمر علمه إلى قائله ، وينزه البارى عن الجارحة ، ومشابهة صفات المحدثة .

وقال فى الوصية : ثم نقر بأن الله على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة واستقرار عليه وهو الحافظ للعرش وغير العرش فلو كان محتاجًا لما قدر على إيجاد العلم وتدبيره كالمخلوق ، ولو صار محتاجًا إلى الجلوس والقرار فقبل خلق العرش أين كان الله تعالى ؟ فهو منزه عن ذلك علوًّا كبيرًا ، انتهى .

ونِعْم ما قال الإمام مالك حيث سئل عن ذلك الاستواء فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، وهذه طريقة السلف وهى أسلم ، والله أعلم ، وقد سبق تأويلات بعض الخلف ،وقد قيل : إنه أحكم ، لكنه نقل بعض الشافعية أن إمام الحرمين كان يتأول أولاً ثم رجع فى آخر أمره وحرم التأويل ، ونقل إجماع السلف على منعه ، كما بين ذلك فى « الرسالة النظامية » وهو موافق لما عليه أصحابنا الماتريدية ، وتوسط ابن دقيق العيد فقال : نقبل التأويل إذا كان المعنى الذى أول به قريبًا مفهومًا من تخاطب العرب ، ويتوقف فيه إذا كان بعيدًا ، وجرى ابن الهمام على التوسط بين أن تدعو الحاجة إلى التأويل لخلل فى فهم العوام ، وبين أن لا تدعو الحاجة لذلك المرام بحسب اختلاف المقام ! قال شارح « العقيدة الطحاوية » : ولا يقال : إن الرضا إرادة الإكرام ، والغضب إرادة الانتقام فإن هذا نفى للصفة .

وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ، ويغضب على فاعله ، وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يحب ويرضى ما لا يريده ويكره ويسخط ويغضب لما أراده ويقال لمن تأول الغضب بإرادة الانتقام والرضى بإرادة الإنعام والإكرام لِمَ تأولت ذلك الكلام ؟ فلابد أن يقول : لأن الغضب غليان دم القلب ، والرضى والميل

والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هى ميل الحى إلى الشىء أو إلى ما يلائمه ويناسبه ، فإنَّ الحى منا مائل إلى ما يجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه ، فالمعنى الذى صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذى صرفته عنه سواء ، فإن جاز هذا جاز ذلك ، فإن قال : الإرادة التى يوصف الله بها مخالفة للإرادة التى يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة ، قيل له : إن الغضب والرضى الذى يوصف به الله مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان ما يقوله فى الإرادة يمكن أن يقال فى هذه الصفات لم يتعين التأويل ، بل يجب تركه ، لأنك تسلم من التناقض ، وتسلم أيضًا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله لامتناع مسمى ذلك فى المخلوق ، فإنه لابد أنْ يثبت شيئًا لله على خلاف ما يعهده حتى فى صفة الوجود ، فإنَّ وجود العبد كما يليق به ووجود البارى كما يليق به ، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم ، فما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحى والقيوم والعليم والقدير ، أو سمى به بعض صفات عباده فنحن نعقل بقلوبنا معانى هذه الأسماء فى حق الله وأنه حق ثابت موجود ، ونعقل أيضًا معانى هذه الأسماء فى حق المخلوق ونعقل بين المعنيين قدرًا مشتركًا ، لكن هذا المعنى لا يوجد فى الخارج مشتركًا ، إذ المعنى المشترك الكلى لا يوجد مشتركًا إلا فى الأذهان ، ولا يوجد فى الخارج إلا معينًا مختصًا ، فيثبت فى كل منهما كما يليق به .

الله خلق الأشياء لا من شىء :

خلق الله تعالى الأشياء من الذوات والحالات كالسكون والحركات ، والأنوار